الروائي البريطاني: تشارلز ديكنز (7 فبراير 1812 ـ 9 يونيو 1870)

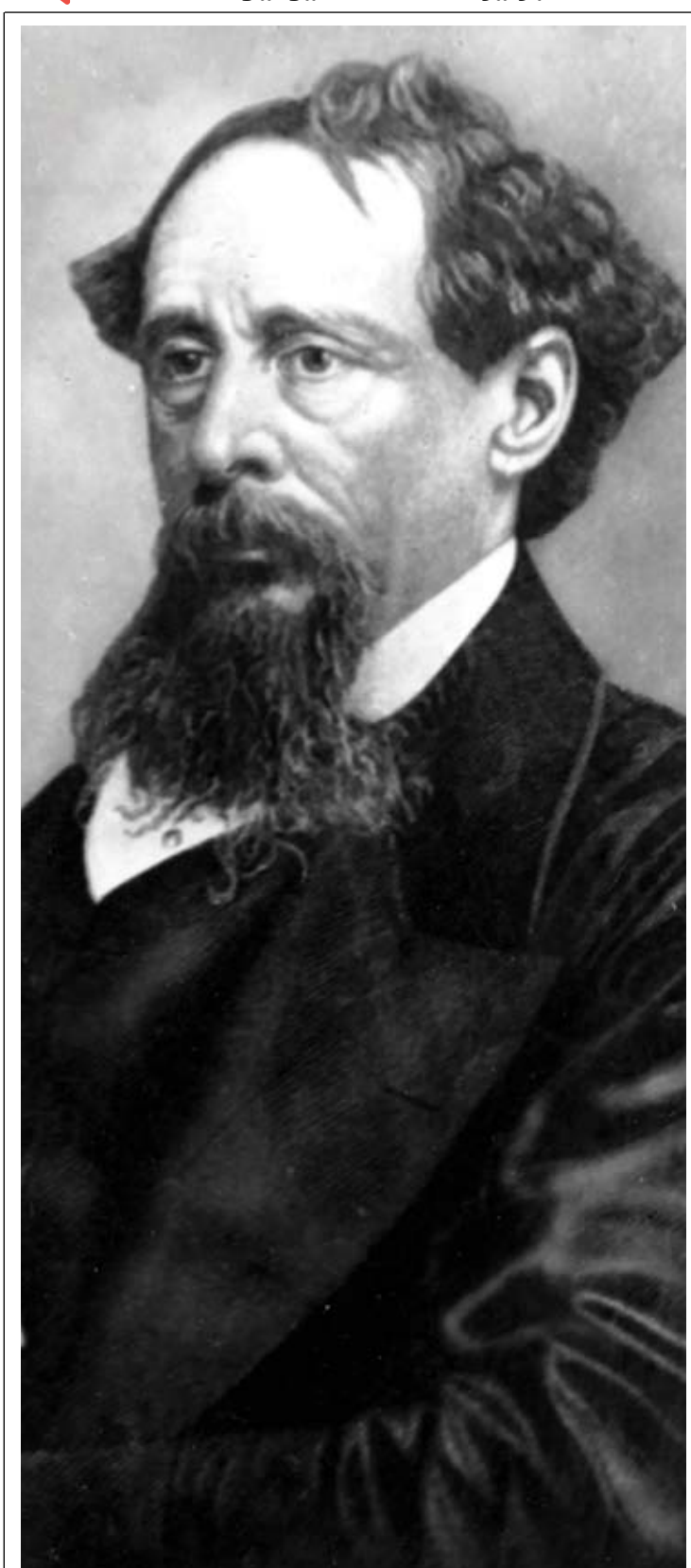

تشارلز ديكنز روائي إنجليزي. يُعدّ بإجماع النُّقّاد أعظم الروائيين الإنكليز في العصر الفكتوري شعبية، ولا يزال كثيرٌ من أعماله تحتفظ بشعبيّته حتى اليوم. تميَّز أسلوبه بالدُّعابة البارعة والسخرية اللاذعة. صوَّر جانبًا من حياة الفقراء، وحمل على المسؤولين عن المياتم والمدارس والسجون حملةً شعواء. من أشهر آثاره: "أوليفر تويست" (1839) و"قصة مدينتين" (1859) نقلهما إلى العربية منير البعلبكي، و"دايفيد كوبرفيلد" (1850) و"أوقات عصيبة".

بسبب شعبية روايات ديكنز وقصصه القصيرة فإن طباعتها لم تتوقف أبدًا. ظهر عديد من روايات ديكنز في الدوريات والمجلات بصيغة مسلسلة أولاً، وكان ذلك الشكل المفضل للأدب وقتها. وعلى عكس الكثيرين من المؤلفين الآخرين الذين كانوا ينهون رواياتهم بالكامل قبل نشرها مسلسلة، فإن ديكنز كان غالبًا يؤلف عمله على أجزاء بالترتيب الذي يُريد أن يظهر عليه العمل. أدت هذه الممارسة إلى إيجاد إيقاع خاص لقصصه يتميز بتتابع المواقف المثيرة الصغيرة واحدًا وراء الآخر ليبقي الجمهور في انتظار الجزء الجديد.

كتب تشارلز عن هذه الانطباعات والتجارب المريرة التي مر بها في أثناء طفولته في العديد من قصصه ورواياته التي ألفها عن أبطال من الأطفال الصغار الذين عانوا كثيرًا وذاقوا العذاب ألوانًا وعاشوا في ضياع تام بسبب الظروف الاجتماعية الصعبة التي كانت سائدة في (إنجلترا) في عصره، ونجد أن شخصيته الرائعة تجلت بوضوح فنجده بالرغم من المشقة التي كان يعاني منها في طفولته إلا أنه كان يستغل أوقات فراغه من العمل الشاق، فينكب على القراءة والاطلاع على الكتب كما كان يحرص على التجول وحيدًا في الأحياء الفقيرة بمدينة لندن حيث يعيش الناس حياة بائسة مريعة وخارجة عن القانون في بعض الأحيان. وكان قد تأثر بالقوانين الليبرالية في عصره فوصف بيوت العمل التي نشأت وفق قانون الفقراء الإنكليزي لسنة 1834 في روايته الشهيرة (أوليفر توست) وفي العديد من القصص والروايات التي كانت من إبداعاته وصف ديكنز هذه الأحياء الفقيرة بكل تفاصيلها وبكل المآسي التي تدور فيها، وعندما وصل إلى سن العشرين تمكنت الأسرة أخيرًا من إلحاقه بأحد المدارس ليكمل تعليمه. وفي الوقت نفسه كان يعمل مراسلاً لإحدى الجرائد المحلية الصغيرة لقاء أجر طفيف أيضًا، ولكنه لم يهتم بالأجر فلقد تفانى في هذا العمل الصحفي الذي كان بمثابة أولى خطواته لتحقيق أحلامه فقد كان بمثابة تمرين له على حرفة الأدب، ولقد أتاح له هذا العمل الصحفي أن يتأمل أحوال الناس على مختلف مستوياتهم الاجتماعية والأخلاقية فخرج بالعديد من التجارب الإنسانية والأخلاقية التي وسعت آفاقه ومداركه الأدبية والحياتية.

أثناء رحلته الأولى إلى أمريكا، عام 1942، وضع ديكنز نفسه كما اعتبر الكثيرون في مقدمة مشاهير الحداثة. فصرح عن معارضته للعبودية وعبّر عن دعمه للإصلاح. ولاقت محاضراته التي بدأت بولاية فرجينيا وانتهت بولاية ميسوري حضورًا كبيرًا، فبدأ سماسرة التذاكر بالتجمهر خارج المواقع التي شهدت حضوره. وكتب كاتب السير الشخصية بريستلي: " لاقى ديكنز أثناء رحلته إلى أمريكا أكبر ترحيب على الإطلاق حظي به أي زائر إلى أمريكا".

وتفاخر ديكنز المعروف بحبه للتباهي فيما بعد: " لقد تجمعوا حولي كما لو كنت معبودًا للجماهير". وعلى الرغم من استمتاعه في البداية بهذا الاهتمام، إلا أن في النهاية استاء من اقتحام خصوصيته. كما أعرب فيما بعد في كتابه ملاحظات أمريكية عن انزعاجه مما أسماه عِشرة الأمريكيين والعادات الفظة لهم.

وفي ضوء انتقاده للشعب الأمريكي أثناء رحلته الأولى، بدأ ديكنز رحلة ثانية إلى أمريكا من عام 1867 وحتى 1868، آملًا بتصحيح الأمور مع الجمهور الأمريكي.

في رحلته الثانية إلى أمريكا، ألقى خطابًا في عيد الميلاد ووعد بالإشادة بالولايات المتحدة في النسخ الجديدة من ملاحظات أمريكية للتداول العام American Notes for General Circulation وحياة ومغامرات مارتن شوزلويت.

وحققت له رواياته المقروءة ما لا يقل عن 95000 دولار، هذا المبلغ في العصر الفيكتوري يساوي تقريبا 1.5 مليون دولار أمريكي حاليًا، وبالعودة إلى الوطن، أصبح ديكنز شخصًا معروفًا في كل أنحاء لندن فكان الناس يشيرون إليه أثناء جولاته في المدينة ليجمع الملاحظات التي من شانها أن تكون ملهمة له في أعماله المستقبلية.

وفي الوقت الذي بدأ فيه بالخروج من عهد الرواية القاتمة الذي صحبه زمنًا، نشر ديكنز عام 1859 قصة مدينتين A Tale of Two Cities، وهي رواية تاريخية تدور أحداثها زمن الثورة الفرنسية. ونشرها في دورية على مدار العام التي أسسها هو. وتركز روايته التالية، آمال كبيرة Great Expectations التي نشرت بين 1860 و1861 على رحلة تطور أخلاقية لبطل الرواية استمرت طوال حياته. وبالنسبة للكثيرين تعد هذه الرواية أعظم إنجازاته الأدبية، وبعد بضع سنوات من ذلك، أنتج ديكنز روايته، أصدقاؤنا المشتركون Our Mutual Friend، وهي رواية تحلل التأثير النفسي للثروة على المجتمع البريطاني.

عام 1865، تعرض ديكنز لحادث قطار ولم يتعافَ منه أبدًا. وعلى الرغم من أوضاعه الهشة، استمر بالتجوال حتى عام 1870. وفي 9 يونيو عام 1870، أصيب ديكنز بسكتة دماغية، وتوفي عن عمر ناهز 58، في غادس هيل، بلدته الريفية في كينت، إنكلترا، ودُفن في ركن الشعراء من دير ويستمينستر، وشيعه الآلاف من محبيه إلى مثواه الأخير. ووصف الكاتب الاسكوتلندي الساخر توماس كارليل وفاة ديكنز بالحدث العالمي، وانطفاء مفاجئ لموهبة فريدة من نوعها. وبوفاة يكنز، لم تنته آخر رواياته، سر إدوين درودود The Mystery of Edwin Drood.

تمثال للروائي البريطاني تشارلز ديكنز
في ميدان غيلدهول في بورتسموث